رمضان في عاصمة السلطنة (*)

لهذا الشهر في هذه العاصمة مظهر غريب لا نعرف له نظيرا في غيرها من بلاد الاسلام وهو يرى على أكمله وأتمه في قسم استانبول منها ، أما في النهار فترى أكثر المطاعم والمشارب والملاهي والمجامع العامة مقفلة لا يختلف اليها أحد ، وترى أمارات الصيام ظاهرة على أكثر الناس فلا تكاد ترى أحدا يدخن ، وترى المساجد الشهيرة عامرة بالمصلين والواعظين والمستمعين والمتفرجين الطوافين ولهذا كله نظير في البلاد الاسلامية الاخرى وانما روقه ههنا بجمال المساجد وزينتها واختلاف الناس من جميع الطبقات إلى المشهور منها ولا سيما جامع ايا صوفيا العظيم ، ويبتدئ هذا من وقت صلاة العصر الى قرب المغرب فمن الناس من يسمع الوعاظ ، ومنهم من يسمع الحفاظ ، وفي الاستانة كثير من حفاظ القرآن بعضهم من حملة العمائم وبعضهم من حملة الطرابيش ومنهم المرتلون المجيدون الذين يخشع المستمع لتلاوتهم مالا يخشع لتلاوة الحفاظ أمثالهم في مصر لخشوع جوارحهم واجتنابهم التطريب والتكلف والحركات التي اعتادها اكثر قراء المصريين . نعم ان أئمة المساجد هنا يقرأون القرآن في الصلاة ولا سيما صلاة الجمعة كما يلقون خطبتها بالنغم الموسيقي الذي يشبه نغم القسيسين في الكنائس ومنهم المسرفون في ذلك والمقتصدون

وبينما يكون الخلق الكثير من الناس في المساجد بين العصر والمغرب يكون شارع « شهزاده » مكتظا بالرجال والنساء الذين يؤمونه من جميع ارجاء المدينة فيكون كالمعرض العام لهم حتى ان كثيرا من أفراد الاسرة السلطانية يجيئونه كل يوم في هذا الوقت . وفي الخامس عشر من الشهر وهو يوم زيارة البردة النبوية الشريفة التي يسمونها « خرقة سعادت » رأينا نساء القصر السلطاني ذاهبات في مركباتهن الكثيرة الى جهة شارع « شهزاده » وليس لهذا الشارع مزية في السعة أو الجمال على غيره

*) كتبناها في الآستانة لتنشر في جزء رمضان فلم تدركه

الآن ولعله كان في وقت ما اوسع الشوارع وأجملها على أن السكان في تلك الجهة جلهم او كلهم من المسلمين وكان يكون فيه في هذا الوقت من تبرج النساء بزينتهن ومغازلة الرجال لهن مالا يكون في مكان آخر في وقت آخر الا في معاهد النزهة في أزمنتها الخاصة كالكاغدخانه ومرج (قاضي كوي) و«حيدر باشا» و«بكقوز» وغيرها من المروج والوديان والغدران وموارد المياه والشواطئ والغابات وكل ذلك كثير في ضواحي هذه العاصمة التي لا نظير لموقعها في الدنيا ولكل معهد من معاهد نزهتها موسم من أيام الربيع والصيف والخريف يؤمه فيها الرجال والنساء بحللهن الزاهية الالوان متبرجات بزينتهن الخاطفة للابصار، حاسرات عن وجوههن المميلة للأعناق، ولا تسل عما يكون هنالك من المغازلة ولكن مع الوقوف عند حدود الادب قلما يتعدونها الا في المجامع الكبيرة التي يجتمع فيها عشرات الالوف من النساء والرجال كمجمع عيد الخضر في الكاغدخانة

في هذه السنة عنيت الحكومة بالمحافظة على الآداب الاسلامية في شهر رمضان ومنها منع الخلاعة والتهتك في معرض شارع الشاهزاده في أصيل النهار كمنع إظهار الفطر وسبب ذلك انها علمت ان من تدبير الجمعية الخفية التي شاع امرها، وانكشف سرها، أنها كانت تريد ان تكيد للحكومة الاتحادية الحاضرة باغراء بعض الفواجر من النساء بالاسراف في التهتك في رمضان بصفة لم يسبق لها نظير ليهيج على الحكومة أهل الدين والغيرة على العرض، ولولا هذا لتركت الحكومة الامر على حاله ولو تركته لما وقف عند الحدود المعتادة من قبل لان الناس قد شعروا بما لم يكونوا يشعرون به من الحرية والاطلاق في شئونهم الشخصية ودليل ذلك ماجرى من المنكرات والفواحش في كثير من البلاد التي لم يكن يجري فيها ذلك وعدم سماع الحكومة لشكوى أهل الدين والادب والغيرة على العرض بل قبضت الحكومة على بعض أهل العلم والفضل لمناهضتهم نساء الافرنج اللاتي جئن بلدهم للرقص والفحش وأرسلتهم الى ديوان الحرب العرفي لمحاكمتهم على ذلك العمل الذي سمته حكومتهم الحميدية ارتجاعا ولكن قيل إن شيخ الاسلام لما بلغه ذلك كتب الى ديوان الحرب العرفي بوجوب اطلاقهم لانهم عملوا ماهو الواجب عليهم وقد أمسكهم ديوان الحرب

أياما للتحقيق ثم سرحهم الى بلدهم ، وجملة القول ان الحكومة المركزية عنيت بحفظ آداب الدين الظاهرة في العاصمة وحكومة بعض الولايات باضاعتها

مال بنا الاستطراد فنعود الى بيان مايتعلق برمضان خاصة فنقول ان وعظ بعض وعاظ الترك هنا يشبه وعظ بعض الشيوخ الدجالين بمصر في خلط المسائل الدينية بالخرافات والاباطيل وقد وقفنا على واحد منهم في جامع أياصوفيا فاذا هو يقول في وعظه ان الدين يأمرنا بالذل والمسكنة والانكسار ورأينا بعض الواقفين للاستماع من الشبان المتعلمين يتبرمون ويتأففون منه فقلت له: الواعظ يقول هذا والله تعالى يقول (٦٣ : ٨ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) ولعله لو راجعه أحد في قوله وذكره بالآية الكريمة لذكر له أنه أخذ هذا القول من بعض كتب الفقهاء او الصوفية كالشيخ احمد الرفاعي رحمه الله تعالى ، وقال انما الواجب علينا ان نهتدي بأقوال العلماء والصلحاء لا بالقرآن لانهم اعلم منا بالقرآن ، وجعل الاحتجاج بالآية ضلالا مبينا لانه يتضمن دعوى الاجتهاد ومخطئة العلماء ، فهذا ما تعودناه من مثله وما أجدر أمة تروج فيها هذه التعاليم الباطلة ، وهذه المناهج الدارسة ، بأن تضرب عليها الذلة والمسكنة ، وتكون بهارا خاضعة منقبطة ، لا تسعى الى العز بسعيه أو ترفض امر الله ونهيه ، وهذا ماحل بالمسلمين ، من جراء تعليم هؤلاء الجاهلين المقلدين ، فقد أعرض المستعدون لادارة أمور الامة عن تعاليمهم الى تعاليم مبنية على أساس الكفر والالحاد ، وقالوا اننا اذا بقينا على هذا الدين فنحن سائرون الى العدم والاضمحلال ، لان الامة الذليلة المسكينة ، لا يمكن أن تحفظ استقلالها بين الامم العزيزة القوية ، فهكذا يوجد فينا من يهدم الدنيا والدين ، وحجته على المصلحين تحريم الاجتهاد ووجوب تقليد جميع المؤلفين الميتين ،

هذا وان هنا وعاظا لا يوجد لهم نظير في مصر ولا في سورية وامثالها من الاقطار الاسلامية وهم وعاظ السياسة واكثر وعاظ هذا العام يخوضون في السياسة بايماز الحكومة الاتحادية وقد سهل عليها هذا الايماز بأن شيخ الاسلام نهى أن يتصدى احد للوعظ الا من يأذنه مقام المشيخة به وهو لا يأذن الا لمن يعلم انه يقيع رغبة الحكومة في تأييد سياستها حتى ان الجمعية العلمية عينت واعظين من قبلها وأذنت شيخ الاسلام بذلك فأمر شيخ الاسلام بمنعهما من الوعظ فهاج ذلك سخط الجمعية

وجماهير العلماء واظهروا ذلك في مجلتهم « بيان الحق » وما يقولونه اكثر مما كتبوه ومنه ان شيخ الاسلام ليس له حق في منع العلماء من الوعظ والارشاد وهو فرض عليهم الا اذا كان له حق في منعهم ومنع غيرهم من سائر فروض الكفاية كصلاة الجنازة مثلا ، وزادهم سخطا وحقا ما نقل اليهم من كتابته الى نظارة الداخلية بوجوب منع هذين العالمين من الوعظ بالقوة اذا هما تصديا له ونحمد الله انهما لم يفعلا لأنهما لو فعلا ومنعتهما الحكومة بالقوة لكان لذلك من سوء التأثير في الامة ما لا خير فيه

من هؤلاء الوعاظ السياسيين المعممون ومنهم غير المعممين ولعله لا يوجد في المعممين القدر الكافي للقيام بالوعظ و بلغني ان بعض القباطة وعظ الناس في أول جمعة من رمضان في « يكي جامع » ـ الكاف هنا تركية تقرأ نونا ـ فقال في وعظه ان من الأمور المنافية للحكومة الدستورية وجود إمارة مكة المكرمة لأنها عبارة عن حكومة مستبدة في ضمن الحكومة « المشروطية » فيجب إلغاؤها وان لا يكون في الحجاز أمر ولا نهي لغير الوالي ومن تحت ادارته من المأمورين ، ومن هؤلاء الوعاظ من حث الناس على أن يدفعوا ما عليهم من الزكاة لخزينة الحكومة مع علمه بأن مال الزكاة خاص بالمسلمين وله مصارف متفق عليها لا تصرفها الحكومة فيها بل تضعها مع سائر أموالها وربما تنفق منها على بناء الكنائس التي قررت بناءها للروم والبلغار ـ ومنهم من استنبط من إكرام النبي (ص) لكعب بن زهير (رض) ببردته الشريفة وجوب تعظيم العسكر وطاعتهم لأن سبب إكرامه هذا بعد أن كان أهدر دمه هو قوله في قصيدته

ان الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

قال والمراد بالسيف العسكر ، فهذا هو وجه الدلالة على ما استنبطه ، ومنهم الذين يدور وعظهم على طلب الاعانة للاسطول فهم يفسرون الآيات الآمرة بالبذل يستوكفون بها الأكف ومنهم من يجمع الدراهم والدنانير في درسه رأينا اسماعيل باشا مبعوث طوقات يفعل ذلك وهو الذي قال في درسه ان الاسلام عبارة عن الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس ، أي فمساعدة الاسطول أحد شطري

الاسلام ، وقد وقفنا على درسه فأعجبنا منه حثه على الاهتداء بالقرآن وتصريحه بأنه لا حياة لنا الا به ، ومما قاله ان هذا القرآن أنزل علينا لأجل أن نكون به سادات العالم ومالكي الممالك كلها ، وبلغنا عنه كلام غريب في تأييد جمعية الأتحاد والترقي وكذا عن غيره ولا نخوض في ذلك وان قال بعضهم ان كلمة التوحيد معناها الأتحاد والترقي فالجمعية عين الاسلام وواضعها هو الله تعالى وكل مسلم هو من افرادها ، وعلى هذه القاعدة يكون من فيها من اليهود والنصارى مسلمين ولكنهم لم يعلموا بذلك

ووقفنا في مجلس أحد العلماء في جامع أياصوفيا فاذا هو احسن من رأينا في هذه المدينة وعظا وهو يدافع عن الاسلام وعن علمائه بعقل ويعرض بالشبان المتفرنجين المارقين يقول يظن بعض شبابنا ان الاسلام يحول دون الترقي وان العلماء هم الذين يمنعون المسلمين من وسائله وهؤلاء يهرفون بما لا يعرفون فان الاسلام هو دين الترقي والمدنية والعمران وحملته من العلماء هم الادلاء على ذلك وما اصاب المسلمين من خير وسعادة فمنهم (قال) أرأيتم هذه المدينة ان فاتحها السلطان محمد هو « خوجه » من اصحاب العمائم وهكذا كان جميع الفاتحين الذين اسسوا ملك الاسلام

يمتاز علماء الآستانة على علماء مصر بالالمام بالسياسة علما وعملا وسبب ذلك أن الكثير من ابواب أعمال الحكومة مفتحة لهم ويكون منهم الوزراء ورؤساء المحاكم وغير المحاكم وناهيك بمنصب القضاء الشرعي في الدولة فان القاضي الشرعي يكون رئيس محكمة الحقوق والعضو الاول في مجلس الادارة وله وظائف أخرى في الحكومة ولو كان العلماء مستقلين كما يجب لكان زمام القضاء كله والادارة بأيديهم ومعظم القضاة الشرعيون بعض ما كان لهم في هذا الدور من الحكومة والحق ان ما كان لهم هو كثير جدا

ليالي رمضان في استانبول

ذلك ما احببنا بيانه في أيام رمضان وأما لياليه فهي ليالي سرور ولهو وعزف

وقصف ... وتسمع المعازف الوترية ـ كالعود والقانون والكمنجا ـ وغير الوترية في اكثر الملاهي التي تدعى في البلاد العربية بالقهاوي وفي البلاد التركية بيوت القراءة (قراءتخانه لر) وفي غير هذه الاماكن ايضا فيتعجب الانسان من كثرة المعازف في هذه العاصمة وسبب ذلك ان لاهلها نساء ورجالا عناية بالعزف والموسيقى ويتعلمون ذلك في مدارس خاصة، وترى اصحاب الطبول الكبيرة يجولون في الشوارع من أول الليل الى وقت الامساك قبيل الفجر، وناهيك بدور التمثيل والرقص ولعل اكثر الناس يسهرون الليل في اللهو والسرور الا قليلا، والتزاور في الليل معتاد أيضا كما نعهد في مصر وسورية ولكن لا يوجد في البيوت حفاظ يرتلون القرآن كما يوجد في مصر

وقد ظهر لي ان لصلاة الجماعة وصلاة التراويح من الاقبال والعناية في الآستانة فوق ما لها في مصر فالمصلون فيها أظن أكثر، ومكثهم في الصلاة يكون أطول، ولكنك ترى أكثر المصلين في بعض المساجد من العسكر وتجد عددا كثيرا من الصبيان ولا يخفى أن العسكر كله كان يكون من خارج الآستانة وبعد الدستور صار يؤخذ منها أيضا

نساء الآستانة في رمضان

يمتاز نساء الآستانة على نساء البلاد العربية بالصلاة في المساجد يقل ذلك منهن في غير رمضان ويكثر فيه حتى ان من المساجد الصغيرة ما هو خاص بهن لا يدخله من الرجال الا الامام الذي يصلي بهن والواعظ الذي يعظهن بعد الظهر وقد يكون الامام هو الواعظ ومنهن من يصلين في الجوامع الكبيرة وقد اتخذ لهن في هذه السنة حظائر في مؤخر المساجد تحجبهن عن الرجال فيها ويدخلن من باب خاص بهن، وإنك لتراهن قبل العشاء بنصف ساعة أو اكثر ذاهبات الى المساجد افرادا واسرابا الأم وبناتها والجارة وجاراتها منهن المتلفعات بالملاآت والحبر، ومنهن لابسات الأردية والجبب، واكثرهن سافرات، ومنهن من تصلي التراويح في بيتها وهذا مما يفضلن به نساء مصر وسورية، اني أرى أن اختلاف النساء الى المساجد يعلي نفوسهن ويرفع قيمتها في نظر صواحبها وقد كن يصلين في المسجد

على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما حمل المسلمين على منعهن منها في اكثر البلاد الا شدة الغيرة وكراهة تبرج بعضهن في غدوهن ورواحهن ولنساء الآستانة من هذا التبرج حظ عظيم وناهيك بالمتبخترات في الشوارع والسبح في أيديهن يعبثن بها فتكون أشد جذبا لأبصار الرجال اليهن من ساثر حليهن وزينتهن ، وكأني بهن يجبن من يعترض عليهن في ذلك بقول تلك الشاعرة العربية

ولله مني جانب لا أضيعه　　وللهو مني واخلاعة جانب

ومن زينة الآستانة في ليالي رمضان قناديل منارات المساجد ولكل مسجد من المساجد الكبيرة هنا منارتان على الأقل وبعضها أربع منارات ولجامع السلطان احمد ست منارات فهم يمدون حبالا بين المنارات ويكتبون بالقناديل فيها كلمات : بسم الله ، الله محمد ، حسن حسين ، نور على نور ، يا حنان ، يا رمضان ، خوش كلدي ، وأمثال ذلك وما يكتب بين منارات هذا المسجد الليلة يكتب غيره في الليلة الأخرى ، وما يكتبونه يقرأ من الاماكن البعيدة لوضوحه وسعته ، فهذا نبأ تاريخي عن حال أهل الآستانة في رمضان لا يخلو من الفوائد وربما يتغير بعضه في السنين الآتية فيكون مما يعرف به الفرق بين الماضي والآتي

حجاب المرأة في الاسلام (*)

أما ما ورد في القرآن والسنة في هذه المسألة من الآداب فهو قاصر على ما يأتي:

(١) الأمر للرجال بغض النظر عن النساء بعض الغض وكذلك للنساء فقال تعالى (يغضوا من أبصارهم) و (يغضضن من أبصارهن) فان الواجب ان لا يطيل الانسان النظر الى وجه جميل يخشى منه الفتنة فان له النظرة الاولى وليس له الثانية . وقد سوى الله تعالى في أمر الغض الرجال بالنساء وهو يشعر بأن كلا الطرفين مكشوف للآخر

(*) تابع لما نشر في (ص ٦٨٩) بقلم الدكتور محمد افندي توفيق صدقي